

الفصل الرابع

وحى يوحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُكُمُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَتْهُمُ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾
[سورة القدر - الآيات ١ : ٥]

١

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :

أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان.

وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان.

وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلعت من رمضان.

وأنزل الزبور لثمانى عشرة خلعت من رمضان.

وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلعت من رمضان.

خرج محمد من غار حراء، بدأ يخطو بين الصخور فى حذر، كانت الشمس فى بدء إشراقها، حانية بدفئها، فالغار رطب بطبيعته.

راحت الأصوات تتناثر من حوله محيية فى مودة:

-- السلام عليك يا رسول الله.

هو كثيرا ما سمع هذه التحية أثناء سيره بالخلاء، هى أصوات تقلقه أكثر مما تسعده، لأنه يخاف

خداع إبليس، ويكره أن يكون له قريناً، لكن النور الذى يفد ليضفى جوا من الطمأنينة والراحة

على نفسه وهو منفرد فى الغار، محال أن يكون من فعل الشياطين، فالشيطان لا يفد على الإنسان

إلا بالظلمة والشقاء.

ولما تحدث بمخاوفه إلى زوجته خديجة، طمأنته فالشياطين لا سلطان لها إلا على الفاسدين، وهو

خيار من خيار.

رأى أثناء سيره صبيا نحىلا، على مبعدة منه، يهش غنيماته بعضا فى يده، ذكره بصباه أيام أن

كان يرعى الغنم لعمه أبى طالب ولأثرياء قريش لقاء أجر قليل.

- كيف حال صاحبي؟.

التفت خلفه ، فوجد عبد الكعبة هو من خاطبه ، كان يتقدم قافلة قد عادت بتجارتها من اليمن ، رد تحيته بأحسن منها ، وتقدم أبو بكر ، وتصافحا في شوق ، ثم سارا جنبا إلى جنب إلى الكعبة فطافا بها ، واتجه عبد الكعبة إلى أصنامهم ، بينما انصرف محمد إلى داره ، هام في سيره ، فهو سيرى زوجته وبناته . ويمكث بينهم أياما ليطمئن على أحوالهم ، ثم يتزود بما يقيم أوده ، ليعاود من جديد الصعود إلى جبل حراء .

٢

منع إبليس من الصعود إلى السماوات العلاء ، وقذف بالشهب ، صرخ إبليس ملتاأا وهو يهوى من السماء :

- واسلطانيه .

فهذا يعنى زوال ملكه ، وانتهاء تسلطه على تلك الملايين من الإنس ، فإنه يقتنهم ويرهبهم بالإيحاء إليهم بأنه يعلم مالا يعلمون ، وأن الغيب الذى يقلقهم ويحيرهم هو له كتاب مفتوح ، وإبليس لا علم له إلا من خلال تسمعه لأخبار السماء التى تتحدث بها الملائكة ، فإذا منع عن الاستماع فمن أين له ما سيفتنهم به؟ .

يا ويل أياميه ، ويا لضيعة سلطانيه .

خر إبليس يمرغ وجهه فى التراب أسفا ونكدا .

تحسفت به الأرض ..

هوى فى طين المستنقعات ..

تلاطم مع الأمواج ..

ثم غاص حتى القاع فى البحار والمحيطات ..

ليهرب من السؤال الذى يلح عليه ، ويكاد يزهق أنفاسه ، ويتمنى أن يطرده ، وألا يناقشه حتى لا يواجه بالحقيقة ، ولكن السؤال ظل يلح ويصك فكره بعنف ، بعد كل ذاك الهروب الذى قاساه ليفلت من مواجهته :

- أ يكون هو المنتظر؟ .

أ يكون محمداً هو ذاك الذى عصمه الله ، فلم أستطع أن أجد لى سبيلا عليه ، هو النبى المنتظر الذى أتى زمانه؟ .

صرخ إبليس :

- والله لا أتركه ، ولأقعدن له كل مقعد ، ولأتريصن به كل متريص .

قال نفر مؤمن من الجن :

- وربنا إنك لن تستطيع له شرا، فإن الله عاصمه، وهو نبي، كما عصمه وهو صبي.
قال إبليس وقد فاحت منه رائحة الكراهية عفنة خبيثة:
- إذن سوف أفسد عليه قومه، ولأجعلن أقرب الناس إليه أكثرهم عداوة له، ولأجعلن دعوته نارا
تأكل قبائل قريش.

قال النفر من الجن المؤمن:

- ولكنه دعوة أبيه إبراهيم.

أذهل قول الجنى إبليس، أعاد صورة إبراهيم، وولده إسماعيل وهما يتمان ببناء الكعبة إلى ذهنه،
سمع صوت الخليل وهو يرفع كفيه بالضراعة إلى السماء يدعو ربه قائلا: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَنُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَنُزِّلْهُمُ إِلَيْكَ أَنْتَ أَلْعَزِيزُ الْخَكِيمُ ﴿١١٩﴾﴾
[سورة البقرة - الآية 119].

قال إبليس مغتاظا:

- ولكنى محوت بشارته من التوراة والإنجيل فما تركت كلمة فيها ذكر لأحمد.

قال الجن المؤمن:

- ليس من كل الكتب، ولا من كل العقول: مُحَيَّت، والله مبلغ رسالته، فعال لما يريد.

تناثرت من إبليس ملايين الذرات بالحققد تطوف في جنون، ثم خدمت مرددة في رهبة
وخضوع وخشوع:

- حقا الله فعال لما يريد.

ثم عادت الذرات تلتئم لتعود إلى طبيعتها الخبيثة، وقال اللعين:

- ولكنى عاهدت ربى أنى مفسد آدم و ذريته، فلأقعدن لمحمد فى كل مجلس، أصلصل فى الآذان
حتى لا تسمع، وأوسوس فى النفوس حتى لا تخشع، ولأغوين به السفهاء حتى يمل ولى يخضع، فإن
كان محمد معصوما، فإن من حوله ليسوا معصومين.

هرول زيد بن عمرو بن نفيل، يبحث عن أول قافلة تعود من الشام إلى مكة ليعود معها، وحين عرف
بأن أمامه أياما كثيرات حتى يستطيع العودة، قرر أن لا ينتظر ويعود وحده، فلم يكن ليطيع أن ينتظر
لحظة بعد أن قال له أحد الرهبان:

- إن الدين الذى تبحث عنه هو دين الإسلام، وما أنت بواجده هنا بالشام، ولكنك ستجده فى

قريتك حيث سيعث نبي منكم يدعو إلى دين إبراهيم، فالحق به فإنه مبعوث الآن، وهذا زمانه.

ودنت المسافات واقتربت، وتأججت النفس باللهفة والشوق إلى رؤية النبی المنتظر، وهانت آلام كل
مشقة على الجسد المنهك بالأسفار والسنين، فها هى ذى نهاية البحث عن دين يرتاح له القلب، تقترب
خاتمها، رفع زيد يديه إلى السماء، شاكرا لله أن أحياه حتى يشهد مشرق الإسلام.

لكن زيذا لم يصل إلى مكة، ولم ير النبي الخاتم، فلقد قتله أنصار إبليس ظلما، ومات باحثا من الباحثين عن سبيل إلى الله.

هكذا شاء الله: أن يكون زيد علامة على الطريق، قبل أن يدرك الطريق.

٣

المكان: غار حراء.

الوقت: ليل.

اليوم: الاثنين.

الشهر: رمضان.

السنة: الثانية عشرة قبل الهجرة.

القمر كعادته مع أواخر الشهور العربية، يظهر متألقا في نهاية الليل، ثم يغادر السماء مسرعا ويرحل، لتغرق الصحراء في ظلمة موحشة صامتة لا يقطع صمتها غير غثاء غنيمة ضالة، أو عواء ذئب جائع، ولا يعكر ظلامها إلا نجم عليل، يقاوم كسف السحاب التي تكتم أنفاسه فيضعف ويضعف حتى يصير شاحبا مصفرا، أو شهاب يمرق متوهجا لينطفئ للحظته. في سموق، كان يرتفع جبل حراء، شامخا في تفوق مهيب على كل ما حوله من أكمة وجبال، وعند النصف الأخير من قامته بدا غار حراء كقوهة تنادى من يراها أن يقدم على دخولها فتأخذه إلى عالم المجهول.

داخل الغار كان محمد منحنيا حتى لا ترتطم رأسه بجدره وبسقفه المنخفض، يجمع بقايا ما صحبه معه من طعام وغطاء، مستعدا للرحيل عائدا إلى داره، بعد أن قارب الليل على الانتهاء. لكن النور فاجأه، نور كأنه شلالات فضة مذابة، أو توهجات أشعة ماسات بيض سقطت عليها أشعة قوية فجعلتها تتوهج، هو نور ليس كمثله نور الثريا، أو نور القمر في قمة الاكتمام، أو نور الشمس لحظة الظهيرة، فهو أعظم من هذا وذاك، وأشد وأقوى، فهو نور ليس كمثله نور. بدا الأمر وكأنه حلم يقظة، فلقد وجد محمد بدنه يذوب ويتلاشى، فيصبح جزءا من ذرات ذاك النور؛ متخلصا من قيد جسده، متساميا، محلقا، يطوف في انطلاق مبهر بلا موانع أو قيود مادية تعوق حركته.

كان منتشيا بما يحدث له، مستريحا لحدوثه، مشوقا للاستزادة والاكتشاف، فلا أرض ولا سماء، ولا حدود تحدد الأشياء وتجسدها، مثل تلك التي تحيط بالأحياء، وتحد من قدراتهم؛ بعد أن أصبح الوجود نورا ليس كمثله شيء.

تبدى له ملك.

كان يحمل كتابا في نمط من ديباج.

قال لمحمد والكتاب مفتوح:

-- اقرأ.

وتستبد الحيرة بنفس محمد، ويرد قائلا:

-- ما أنا بقارئ؟!.

ويضم الملك محمدا إليه ضما شديدا، يزداد مع مرور اللحظات شدة فوق شدة، حتى لتكاد النفس تتبدد، ويكاد الوجود أن ينتهي.

هنا يخفف الملك من غطه، ثم يترك النفس حرة، فتساب الراحة بالخدر تهز المنشاعر؛ لكن الأمر لا يطول فما هي إلا لحظات حتى يعود الملك إلى قوله لمحمد:

-- اقرأ.

وتمتلئ النفس بالخوف، خشية العودة إلى الغط وهوله، ويتساءل محمد في رجاء:

-- ما أنا بقارئ؟!.

ويعاود الملك غط النفس القلقة الباحثة، ويشتد عليها، ثم يطلقها بعد أن أذاقها انزيد من الرهق؛ لكن مشاعر الخدر والراحة، لا تعاود النفس، فلقد حلت مكانها مشاعر القلق والخشية من معاودة الغط؛ وسرعان ما تحقق ما توقعته، فلقد عاود الملك القول للمرة الثالثة:

-- اقرأ.

ويكاد صوت محمد أن يختنق من الحزن والخزي، وهو يعلن الحقيقة للملك:

-- ما أنا بقارئ؛ فما قرأت كتابا قط، وما أحسنه، وما أقرأ، وما أكتب!!.

وفي استسلام كامل ينتظر محمد أن يعاود الملك غطه، لكن الملك لا يضمه، ولا يشتد عليه؛ ولكنه

قرأ في خشوع أوبت معه نرات النور، في ترديد رائع شمل الوجود جميعه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾

[سورة العلق - الآيات ١ : ٥].

.. وكأنه ما كان قولا قبيل، فالكلمات قد انسابت ونقشت نقشا على جدار قلب محمد، بل سرت

في دمه، وامتزجت بروحه في تآلف كامل، حتى إن محمدا يستطيع أن يقرأها، بل ها هو ذا يتلو ما

سمع من الملك، ودموعه تنساب في خشوع ورهبة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ②

أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [سورة العلق - الآيات ١ : ٥].

وما إن انتهى من تلاوته حتى أجهش بالبكاء، وراح جسده ينتفض، وبقي على هذا الحال زمنا

لا يستطيع أن يدرك مدته طالت أو قصرت؛ ولما هدأ رفع يده فوجد له يدا، ورفع بصره فأبصر صخور

غار حراء تحيط به. ووجد واقعه الذي كان عليه من قبل محيطا به؛ فلا نور هناك، ولا ملك.

تملك نفسه حزن شديد، فلقد ذهب عنه ذاك العالم النوراني، وكأنه ما حدث، وكأنه ما سمع،

وما تعلم؛ وكان ما حدث وهم من وهم!.

ولكن من المحال أن يكون ذلك كذلك، فيها هي ذى الكلمات لا تزال نابضة في قلبه، ماثلة في أذنيه، ثابتة في عقله.

فسبحان القادر الذى علم الأمى أن يقرأ.

سبحان الله الذى علم الإنسان ما لم يعلم.

سبحان من قال: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾

[سورة العنكبوت: الآية ٤٨].

٤

نهض مرهقا تعباً، غادر الغار، اتخذ طريقه نازلاً الجبل، وشمس النهار ترسم على الصخور ظللاً متأرجحة لخطوط مبهمه.

لم يستطع أن يتجه إلى الكعبة ليطوف بها، كما اعتاد بعد كل انتهاء من تحنث، بل اتجه إلى داره، وهو يدعو ربه أن يتمكن من الوصول إليها قبل أن يسقط إعياء ورهقا.

استقبلته خديجة وقلبيها منفرط عليه، فلقد ذهبت بها الهواجس كل مذهب، بعد أن تأخر عليها، وهو الذى لم يخلفها وعدا ولا موعدا، وزاد من قلقها أن رسلها الذين بعثتهم يتقصون عن سبب تأخره، عادوا إليها ليلعنوها أنهم لم يعثروا عليه فى مكة أو فى شعابها.

كان يقف أمامها ذاهلا، يعيش بروحه بعيدا عن الموقف الذى تعيشه هي، حقيقة أنه مائل أمامها بجسده الذى راح يرتعد وينتفض بالحمى، ويتفصد منه العرق، من روع ما رأى، لكن النفس ما زالت واقعة فى إسار الموقف الذى عاشت فيه، وتوحدت خلاله مع دقائق النور، ونورانية الكلمات التى ألقاها عليه الملك، وملكت عليه كل كيانه.

أخذت خديجة تسأله فى قلق عن ما أصابه، وعن السبب الذى أوصله إلى تلك الحال التى تراه عليها، وهو لا يجيبها بشيء، ثم وفى صعوبة بالغة تمتم فى رجاء:

- دثرونى.. دثرونى.

أسرعت به إلى حيث اعتاد أن ينام، فأنامته، ودثرته بالأغطية، ثم انحنى لهفى عليه تكرر تساؤلها اللتاع عما به راجية باكية.

وامتلاً فؤاده عطفاً عليها، فراح يجاهد رهقه، وبعد جهد جهيد، قص عليها ما حدث وما كان فى كلمات متقطعة مرتعشة، والدمع ينساب مدرارا، ثم أفاض بخوفه من أن يكون ما حدث من فعل إبليس، الذى سيطر على أهله واستعبدهم بالسحر وبالشعر، ثم أضاف قائلا:

- لقد خشيت على نفسى؟.

لكن خديجة نفت مظهره، وأكدت له أن ما حدث محال أن يكون من فعل الشيطان، فما رآه نور،

وما سمعه تمجيد للخالق العظيم؛ وأمر بالعلم، وإبليس لا يريد بالبشر خيرا، ولا يذكرهم إلا بالدنس والفساد، ولا يبتغى لعقولهم إلا أن تتسربل في ظلمات الجهل، وظلمة الدنيا، ثم أردفت مؤكدة:

- كلا.. ورب الكعبة إن الله لن يخزيك أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

اطمأن إلى كلماتها، هدأت مخاوفه قليلا، فاستطاع النوم أن يأخذه إلى عالم الراحة. تأملته خديجة طويلا، ونفسها تكاد تتفجر خشية عليه، على رغم يقينها مما قالت له؛ ولكن لم لا يساورها الشك: فهي زوجته، وقد تكون منحازة إليه، وهي تحبه كل الحب، بل هي مفتونة به، مقدرة له تلك العشرة الطيبة التي عاشها.

واشتدت بها الهواجس، فأسرعت ترتدى ملابسها، وتصحب أحد غلمانها، وتسعى إلى دار ابن عمها ورقة بن نوفل، وبصيص من أمل يحول بينها وبين أن تنهار فرقا على الحبيب، بعد أن تسللت إلى نفسها مخاوفه التي أفصح بها إليها، فزلزلت يقينها، وأوشكت أن تنزل بها الرعب.

استأذن لها الغلام، واستقبلها الشيخ الفاني بالترحاب، وهو يقول مهللا:

- والله يا ابنة العم ما جاء بك الساعة إلى إلا أمر جليل.

حدثته خديجة بما رأت عليه محمدا، وبكل ما سمعت منه.

استمع إليها ورقة بكل جوارحه، وكل كلمة خطها من إنجيل وتوراة تحدثت عن أحمد المنتظر تتوارد على ذهنه، حقيقة أن بصره الآن قد كل وبات أعمى، لكن بصيرته أصبحت تضيء له الطريق بالحقيقة، هتف مهللا، وقد أدرك أنه قد تحقق المبعث للنبي الخاتم:

- قدوس.. قدوس، والذي نفسى بيده، إن ما رأى محمد هو الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة.



خرجت خديجة من دار ورقة بن نوفل، وقد هدأت نفسها، واطمأن بالها إلى كون سعيها مع محمد، إنما كان سعيها مع نبي الله الذي سمعت ابن عمها يتحدث عنه كثيرا، منذ اعتنق دين النصرانية، وكتب الإنجيل والتوراة بيده، وكان يؤكد أن هناك نبيا قد أظلم زمانه اسمه أحمد، وأن عيسى عليه السلام قد بشر به، وأعلن أنه التام للرسول، وأنه الخاتم.

واستعادت ذاكرتها ما قاله لها غلامها ميسرة منذ سنوات وسنوات، عندما أرسلته مع محمد في تجارتهما الأولى إلى الشام، وكيف أن الراهب الذي اعتاد أن يذهب إليه ميسرة قد لاحظ أن الغمام يظلل محمدا، ليمنع عنه لهيب الشمس من دون كل رجال القافلة، لذلك راح يسأل ميسرة عن صاحبه..

كيف يتصرف؟.. ومن أي قبائل قریش هو؟..

وما اسمه؟.. وما خلقه؟.

عشرات من الأسئلة سألها الراهب ليسرة، ثم رجاه أن يصحب محمدا إلى صومعته، فلما ذهب معه إلى الراهب وجدوه قد أعد لهم طعاما، وهو ما لم يفعله من قبل ليسرة طيلة زيارته السابقة، فلما فرغا من الطعام أخذ يسأل محمدا في شتى الأمور، وهو لا يكف عن البحث بعينيه الكليلتين عن علامات معينة. فيطيل النظر إلى يديه تارة، وتارة إلى عنقه وما انكشف من ظهره، وحين أراد أن ينصرفا استبقى ميسرة. وقال له:

- إن صاحبك هو النبي المنتظر، فأكتم الأمر عنه، ولا تكلم فيه أحدا، إلى أن يظهره الله. وإذا لم تصدق نبوءة الكاهن، ولم يكن ورقة صادقا في كلامه، أليس خلق محمد النبيل، واختلافه الشديد عن أقرانه، وبعده عن الخطايا وأكل السحت، وكرهيته للكهان والرهبان من الذين يعملون بالسحر فأصبحوا يسحرهم أولياء لقريش، وهجره لمجالس الشعر والفجور وعبادة الأصنام، ووصله لرحمه، وحده على أهله، وإكرامه للضيف، وإعانتة للضعيف، وكل ذلك التواضع الذي يلزمه بلا افتعال حتى لتراه بين خدمها وعبيدها فلا تكاد تدرك من السيد ومن المسود.. أليس هذا جميعه كفيلا بأن يجعله هو النبي المنتظر؟!.

وحين دخلت دارها، لم تستطع أن تمنع تنهيدة خرجت مع تمتتها لنفسها:

- حقا يا محمد إن كل ما فيك محمود، وإنه لأنت أحمد.

تسللت إلى مخدعه، وجدته مستغرقا في النوم، وقد زابلته الرجفة التي كانت تهز جسده هزا، بينما تألق جبينه بحبات العرق، مدت يدها في حنان، ومسحتها بطرف ثوبها، وهي تهمس لنفسها:

- ورب الكعبة إنى لأرجو يا محمد أن تكون أنت نبي هذه الأمة، لتكون رحمة بالناس، كما كنت رحمة لي.

٦

استيقظ محمد من نومه مرهقا غاية الإرهاق، وقد بدأت الشمس تأخذ طريقها نحو المغرب، وذكريات تلك اللحظات النورانية التي عاشها لم تعادره بعد، جلس في فراشه متأهبا للنهوض، أقبلت عليه خديجة تبشره بما قاله لها ورقة بن نوفل، وتشهده بأنه نبي الله، فلم تجد منه اهتماما بما قالت، أو التفاتا إليه، فهو لم يزل في نورانية اللحظات الماضية، غير راغب في الدنيا وما عليها، والشك عنده أقوى من اليقين بالنسبة لما حدث في الغار، وهو محق في شكه، فكل ما يحيط بالحياة حوله من سحر وشعوذة، جعل الحق يختلط بالباطل، والحقيقة تتوه أمام الوهم، حتى أصبح الشرك جزءا من عبادة القرشيين.

تحامل على نفسه لينهض، قالت له خديجة وهو يأخذ طريقه خارجا:

– ألا تأكل؟! .!

قال وهو ينصرف:

– ما بي حاجة إلى طعام..

لم تعجب لقوله، فمحمد قليل الميل إلى الطعام؛ دائم الزهد فيه، هو ليس كغيره من أصحاب البطون
المدلاة، بل هو كثير الصيام: فلم لا يكون قد بدأ يومه صائماً؟.

اتجه إلى الكعبة ليطوف بها، كان مشتت الفكر، مشغولاً بما أحيط به من أحداث، عازفاً عن كل
شيء، غير آبه بما يحيط به من بشر، إلى أن وجد يداً تحط على كتفه فانتبه ملتفتاً، فواجه ورقة بن
نوفل يتحسسه سائلاً:

– ألسنت محمدًا؟.

قال عازفاً عن الحديث:

– نعم إنني هو.

قال ورقة في لهفة هامسا:

– ألا تحدثني يا ابن أخى بما جاءك؟.

تفجرت الحيرة كلاماً متصلاً: عما جرى، وعما سمع؛ وأفاض بمخاوفه التي توارقه، واستمع إليه
ورقة بكل جوارحه، وهو يسترجع ما قرأ في سفر أشعيا النبي: «أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة
ويقال له اقرأ هذا فيقول لا أعرف الكتابة».

وها هو ذا قد جاء محمدًا من يقول له: «اقرأ».

لم يملك ورقة أمام تدفق عواطفه بالفرحة والبشر، إلا أن ينحنى فيقبل يافوخ محمد، وهو يقول:
– والذى نفس ورقة بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى من
قبل: ولتكذبك ولتؤذنبك ولتقاتلنك ولتخرجنك، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصراً عظيماً، فأبشر
يا ابن أخى فإنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم.

تساءل محمد جزعاً:

– أو مخرجى هم؟! .!

قال ورقة مؤكداً:

– نعم فلم يأت أحد بمثل ما جاءك إلا عودى.

واصل محمد طوافه حتى أتمه، ثم خرج إلى الخلاء وهو مهموم؛ كانت ساقاه تقودانه إلى الغار،
مرهق النفس والبدن، على رغم ما قاله له ورقة، فلعله لم يتخلص من الشك الذى يؤرقه، ويطارده
بأنه ممسوس، وأن ما قيل وما سمع فى الغار، هو من وسوسة شياطين الشعر، وهذا ما كان يكره
أن يصير إليه، فما نهج نهج جده عبد المطلب، ونهج عمه أبى طالب من صعود إلى الغار، إلا فراراً
من تلك الحياة النكراء التى يحيها قوم، ويحثا عن طريق للعبادة الحقة بلا أصنام أو شرك، عبادة

لخالق السماوات والأرض؛ أما أن ينتهى به سعيه إلى أن يصير: كاهنا أو شاعرا، فإن الموت لأهون من ذلك.

كان قد تسلق الجبل، مرتفعا عن الأرض ارتفاعا كبيرا، وقد تشبثت أصابع قدميه بمنزلق صخرة، تتربص الهاوية بمن يتقدم فوقها خطوة واحدة، هنا ظهر الملك يناديه مطمئنا، مهونا عليه:

- يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

داخلت نفسه طمأنينة جعلت قدميه تنسحبان متراجعتين، وعاد أدراجه ينزل الجبل، ولكن الملك عاود نداءه:

- يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

قطع طريق الهبوط وكأنه يطير، وحين استقر على أرض الوادي، رفع بصره ينظر إلى من يخاطبه فوجد الملك يملأ السماوات والأرض محيطا به، فلم يحتمل هول الرؤية وخر مغشيا عليه، راح الملك يضمه إلى صدره مخفقا عنه، وليذهب ما أصابه من روع.

٧

حين أفاق أسرع عائدا إلى داره ترجف أعضاؤه، ولما بصرت به خديجة مصفر اللون، مضجع البدن، يكافح حتى يستطيع الوقوف فلا يسقط، هلح فؤادها، وأقبلت عليه تغطه بشدة، وكأنها تود لو تفتديه بنفسها، وهي تسأله:

- ما بك يا ابن العم؟

قال محمد وأسنانه تصطك في عنف، محاولا بكل ما تبقى لديه من جهد أن يسيطر على مخارج الكلمات:

- زملوني.. زملوني.

أسرعت خديجة تدثره بخمارها وبكل ما وقعت عليه يداها، وأنامته في فراشه، وهو لا يكف عن الارتجاج، وهي على التصاقها به، مهونة عليه ما يجد من شدة.

وهذا جسد محمد، واستكانت نفسه، وامتلا امتثالا لما نزل عليه، فالأمر جد لا هزل، فلا شك ولا ريبة، فهذا الذى ألقى عليه ليس من الشعر فى شيء، بل هى أوامر إلهية تدعوه إلى طريق العبادة الصحيحة، وإلى هجر الأوثان لأنها من أعمال الشيطان، وإلى الطهر والتطهر من أدران الشرك والجاهلية، والبعد عن النجس فى الملبس والخلق؛ وهذا ما كان ينشده ويسعى إليه منذ شب بين أهله ورأى ما هم عليه من شرك عافته نفسه، ورفضه عقله، فقيم يفعلون لتقليل لشأن العقل، إن لم يكن فيه إلغاء له:

فهل هنالك عاقل يجعل إلهه من صنع يديه؟!.

ثم ها هو ذا مخاطب من الله تعالى، بالحال التى كان عليها من شك وخوف واهلح، مطالب بأن ينصو

عنه حال التدثر العقلي: الذي يملأه شكا في الحقيقة الجديدة، وتخوفا من مواجهة التجلي الأعظم لله الذي خلق الإنسان من علق، وعلمه ما لم يكن يعلم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُطَقَّ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة القصص: الآية ٨٦]. فسبحان الله الرحمن الرحيم، الذي شملت رحمته عبده محمدا فنزل عليه الكتاب، وما كان يدري ما الكتاب، ولا الإيمان.

نضا عنه غطاءه، استقام جالسا، نهض وقد ملئ، نشاطا وإقبالا على الحياة: صادف خديجة في طريقه، أخبرها بما أنزل عليه، هللت خديجة لما سمعت، وللحال الذي أصبح عليه محمد من إشراق ملاً الوجه نورا، ومن فرحة بدت في نبرات الصوت الواثق وقد زایلته الرعدة، وذهب عنه التردد. تطهر مغتسلا، وتبعته فتطهرت هي أيضا، وخرج إلى الكعبة، ليطوف شاكرا لصاحب البيت ما أنعم به عليه، بينما اتجهت خديجة إلى أركان بيتها تزيل ما بها من أوثان. وأوحى إلى محمد أن يشهد أن: لا إله إلا الله.

واستقر اليقين، وظهر الحق الذي كان ينشده هو والذين ملأ الشك قلوبهم فيما كان آباؤهم عليه: - لا إله إلا الله.

وهل يعقل حقا أن يحكم كل هذا الكون إلا بآله واحد؟!.

واحد، أحد، فرد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

ثم أقرأه جبريل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ③ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦ [سورة الفاتحة - الآيات ١ : ٧]. يا لله..

ما كل هذه الرقعة التي تحملها كلمات رب العالمين؟.

قدرة ورحمة، إنها تبيان لعظمة الخالق، ثم إتاحة للعابد أن يعود ويستعين به، طالبا الهدى وسبيل الرشاد، نائيا بنفسه عن طريق الضالين، من المغضوب عليهم لشركهم، وعدم اتباعهم لتعاليم الله. عاد إلى خديجة مفعم النفس بالأمل في أن رحمة الله قد أدركت العباد، رتل عليها ما تعلم، ثم أشهدا أن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فشهدت.

٨

كان من عاداته أن يستيقظ مبكرا ليبدا يومه بالطواف حول الكعبة، على رغم قيامه الليل ذاكرا شاكرا لله ما اختصه به من نعمة الإسلام، ولقد أضاف إلى عاداته جديدا، هو قراءة القرآن في ركن قصى، بعيدا عن الأصنام وعن آذان المتلصقين، وحين ينتهي يخرج إلى الخلاء متعبدا متأملا في قدرة الله.

وذاث صباح أشار إليه جبريل أن يتبعه، فسار معه ما شاء الله، ثم نكت جبريل الأرض بقدمه فتفجرت منها عين توضأ من مائها، ومحمد يتبعه فيفعل مثلما يفعل، وعلمه جبريل الصلاة، فصليا ركعتين مستقبليين الكعبة، وحين انتهيا عاد محمد إلى الكعبة فاستلم الحجر الأسود وطاف بالكعبة سبعة أشواط، ثم ذهب إلى داره فعلم زوجه الوضوء والصلاة، فلما انتهيا، جاءه جبريل وقال له:

-- أقرئ خديجة السلام من ربها.

التفت النبي إلى زوجته، وقال لها:

-- يا خديجة، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك.

قالت الصديقة رضى الله عنها:

-- الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

وحين حل الليل..

صلى به جبريل مرة ثانية، فشرعت الصلاة مرتين بالعادة والعشى.

ومع تبدد خيوط الظلام، وقف محمد يصلى مع أول من صدقت به، فى ركن من الدار اختاراه ليكونا بعيدين عن الأعين، ولكن على بن أبى طالب رأهما، ولقد دفعه الفضول لأن يقف متأملا ما يحدث، مستمعا لما يقال، ثم تقدم يسأل دهشا:

-- ما هذا يا محمد!؟

قال النبي ﷺ:

-- إنه دين الله الذى اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، والكفر بالللات والعزى.

قال على، وقد أذهله ما سمع:

-- هذا أمر لم أسمع به من قبل، فليست يقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب.

ولأن النبي كان لا يريد لأمره أن يشيع فى مكة أو فى غيرها، طلب من على أن يكتم الأمر ولا يذيعه، فلا قسر، فليست هنالك ضرورة تلزمه بأن ينضم إلى الدين الجديد.

كتم «على» الأمر، فلقد كان يحب محمدا، ولقد جعله حديه عليه، أقرب الناس إلى قلبه من بعد أبى طالب، وكان محمد تام الثقة فى كتمان على للأمر، فعلى رغم صغر سنه فإنه يتميز عن أقرانه برجاحة العقل، والرزانة.

ولكن عليا، وإن كتّم أمر دين محمد الجديد، إلا أنه لم يستطع أن يبتعد بفكره، ولا بوجوده عما سمع..

الله الرحمن الرحيم.. هذا هو إله محمد، إنه إله أولى بأن يحب، وأن يعبد، ثم إن محمدا لم يدعه إلى أمر يسىء، منذ انتقل من بيت أبيه ليعيش معه، فمحمد بحق مثلما قالت عنه قريش: الصادق.. الأمين.

حين قر قرار على، لم يطق صبورا، وخرج يبحث عن النبي، ثم وقف بين يديه يرتعد وجدا وقال:

-- ماذا عرضت على بالأمس يا محمد؟

قال النبي ﷺ :

- تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر بالللات والعزى ، وتبرأ من الأنداد .

قال علي :

- أشهد .

وأصبح الذين يصلون في دار خديجة ثلاثة ، ولكن الرابع انضم إليهم سريعا ، فحين رأى زيد - الذي اختار محمداً له أبا - أباه وهو يصلي ، ويرتل كلاما يأخذ بالألباب ، اجتاح كلام الله عقل الفتى المقبل على الشباب وزلزلته .

ويطلب زيد من النبي أن يزيده علما بدينه الجديد ، ويجلس بين يدي النبي يستمع ، فلم يقم من جلسته إلا وقد شهد بأن لا إله إلا الله ؛ ولا عجب في أن يحدث هذا لصبي اعتقه محمد من العبودية ، وأنزله منه منزلة الابن من الأب .

وما كان زيد ابنا لمحمد ، ولكنه ولد بالشام من أب حر ، ومن أم حرة ، واختطفه تجار الرقيق ، وجاءوا به إلى مكة وباعوه ضمن من باعوا من العبيد لحكيم بن حزام ، وحين عاد حكيم من رحلة الشام ، زارته عمته خديجة مهتنة له بالعودة ، فخيرها في أن تنتقى من تريد مما عنده من عبيد ، تقديرا لزيارتها ، فاختارت زيدا لأنه كان أصغرهم سنا ، وأحسنهم وجها ، وكان اختيارها لنية بيتتها .

فلما عادت إلى دارها وهبته لمحمد ، تسرية عنه بعد أن فقدا ولديهما : عبد الله ، والقاسم ، وحين عثر الأب الحقيقي على ابنه في كنف النبي ، بعد سنين عديدة قضاه متنقلا من بلد إلى بلد ، لا ييأس ولا يقنط ، واستمع محمد لقصة الأب منصتا في رقة من ذاق لوعة الفقد ، ورأفة بالأب ، خير محمد «زيدا» في أن يختار أيا من الأبوين شاء ، وقال له :

- يا زيد هذا أبوك حارثة بن شرحبيل ، إن شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أبيك .

وجاء قرار زيد سريعا ، وحاسما ، وبلا تردد :

- بل أبقى معك يا محمد ، فلقد أعطيتني من الحب والرحمة ما لم أجده عند أحد غيرك .

وصحب محمد زيدا إلى مجالس مكة ، وأشهدهم أن زيدا قد صار ابنا له .

وهكذا انتظم المسلم الرابع في الصلاة .

٩

كانوا يتكتمون أمرهم ، فيصلون مع الشروق في الكعبة ، ثم يستخفي النبي مع «علي» في الجبل ليصليا العشاء معا ، فلقد كانت قريش لا ترفض صلاة الضحى ، ولا تعجب منها .

ولكن هل استطاع تكتمهم للأمر أن يمنع تفشى خير دينهم بين الناس؟ .

كلا.. فمن المحال أن يتحقق مرادهم ، لأن مكة كغيرها من المجتمعات الصغيرة ، يحب أفرادها أن يتجسسوا على ما حولهم من أخبار ووقائع ، لتكون محور أحاديثهم ، وشاغلا يجدد فكرهم ، ويلهب خيالهم ، فمجال الحياة اليومية ضيق محدود ؛ كما أن طبيعة البناء العمراني تتيح للجار أن يشب

قليلا فيكشف ستر جاره، وأن ينصت بأذنيه فيسمع كما يريد، وأن يتجسس فيلمس ما يود أن يكشف ستره، فسكنى مكة الخيام والدور المبنية من حجارة الجبال، المسقوفة بسعف النخيل، أما أبواب الدور فهي ستائر من صوف الجمال أو الأغنام.

ولقد ساعد على سرعة الذبوع ما أعلنه ورقة بن نوفل منذ سمع من النبي بأمر الناموس الذي جاءه، من أن محمدا هو أحمد الحامد لله، وأنه هو الرسول الخاتم، ثم راح يصيح في غدوه ورواحه، متوعدا القرشيين بزوال دولتهم، وبالعذاب إن هم لم يتبعوا محمدا. كما كانت خديجة كلما سئلت عن أمر الأمين، لم تأخذ حذرهما، فتعلن حقيقة ما جاءه من أمر السماء.

وبسبب هذا جميعه، سرعان ما تسامعت مجالس قريش بأمر الدين الجديد، وراح القرشيون يقللون من شأن النبي، ويشيعون أنه ساحر أو مسحور تخاطبه شياطين الشعر، وأن أمره سينتهي إلى التعقل وهجر ما يتوهم، كما انتهى أمر من سبقوه وتحنفوا هاجرين اللات والعزى وما عبد الآباء. لذلك كانت فرحة سادة قريش لا توصف حين سمعوا بمرض النبي، وبانقطاع الملك عنه، وقالوا شامتين:

– لقد قلاه ربه.

ولكن فرحتهم لم تدم، فلقد عاد جبريل محمدا ﷺ يمسح عنه الألم النفسى الذى عاناه نتيجة تخوفه من زوال نعمة الهداية عنه، ورتل عليه من سورة الضحى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرَ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [سورة الضحى - الآيات ١ : ١١].

فها هو ذا الخالق ينصفه، وينصره، ويجتبيه، وينبئه إلى أن أمور الدنيا يجب ألا تأخذ من اهتمامه إلا النذر اليسير:

فالآخرة خير لك ولأمتك، وأكثر دواما، ثم يذكره بفضلها الذى شمله به ولا زال، منذ كان يتيما، ولأن محمدا عارف بهذه النعم الربانية، فاهم لها، فهو يصل الليل بالنهار متعبدا قانتا شاكرا لله. قالت له خديجة حين قرأ عليها سورة الضحى:

– والله.. إن ربك لن يتخلى عنك أبدا.. أليس هو سبحانه من أرسل إليك الوحي بقوله: ما ودعك ربك وما قلى؟.

واشدد الوحي..

وتتابع نزول القرآن.

□□□